المبحث الثالث

التوصيف الإسلامي لمفهوم العلمانية

حسب الواقع الفكري الحضاري الذي ينتمي اليه العلمانية، وإشكاليات انتقاله إلى البيئة الإسلامية، لا بد أن نعرضها على ميزان التوصيف الإسلامي من خلال مصادره المعتمدة، وتحليلات علمائه.

المطلب الأول: التوصيف القرآني لمفهوم العلمانية وآثاره

إنّ العلمانية كمصطلح دالّ حديث النشأة، أما مفهومه والمراد منه فنجد عناصره في ثنايا القرآن الكريم وهي كثيرة منها:

١- في سورة إبراهيم الآيات ٢٤- ٢٧ من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فمعلومٌ أنّ العلمانية ليست بالكلمة الطيبة وهذا الكلام ليس من كلام المسلمين وإنما هو من مبادئ العلمانية التي تنكر أي علاقة للدين بشؤون الإنسان اليومية، فلا صلة للعلمانية بالسماء وهي غير ثابتة باعتبار أنّ العلمانية تحتكم على عناصر زمنية في أحكامها ورؤاها.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ فصفة الكلمة الخبيثة تنطبق على العلمانية باعتبار أنها متغيرة في كل زمان ومكان، كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات. ولذلك فإنّ الله يثبت المؤمنين بالقول الثابت لا بالعلمانية التي لا تجعل للآخر أي وزن، لذا يقول سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فالقول الثابت ما ثبت بقول الله سبحانه وبقول الرسول (ﷺ)، وليس بقول دوركايم أو داروين أو فرويد أو غيرهم ممن بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار!!

٢ - وفي سورة فصلت الآية ٣٣ يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فلا دعوةَ في العلمانية إلى الله ولا عمل بموازين الإسلام، إنما هي دعوة جاهلية تعمل بموازين عقل دوركايم وماركس وميكيافيللي وغيرهم. وعندما ينعتُ العلماني نفسه بالمسلم لا يقصد إلا حمل الصفة وليس العمل به، فهل العلماني مستسلم لله وشرعه وإرادته؟! وعندما يقول العلماني إنني من المسلمين، هل يقصد حقاً أنه يقول إنني من المستسلمين لأمر وإرادة الوحي المرسل من الخالق الباريء الذي له الأمر من قبل ومن بعد!؟.

٣ - وفي سورة الأنعام الآية ١١٥ يقول سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وهذه الآية وما بعدها توصيف دقيق ومثير لمفهوم العلمانية، فالكلمة الربانية يملؤها الصدق والعدل معاً، والعلمانية ليست كلمة ربانية؛ لأنها لا تحمل الصدق المقصود في المفهوم القرآني وتفتقر إليه، ولا عدل في العلمانية؛ لأنها تهتم بالجسد على حساب الروح، وتهتم بالعقل لا القلب، وتهتم بالعباد وليس المعبود وهكذا فأي عدل تدعيه وهي تهمل شطراً واسعاً في النفس الإنسانية والمعتمد في وجود الكون!!؟؟ إذن فقد تمت كلمة الله سبحانه صدقاً - فيما قال وقرر - وعدلاً - فيما شرع وحكم -فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو مبدأ أو قيمة أو ميزان. ولم يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم، أو عادة أو تقليد.. ولا معقّب لحكمه ولا مجير عليه..[1].

٤- وفي سورة آل عمران الآيات (٦٤ -٦٨): قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فأين هي العلمانية من

(١) سيد قطب: **في ظلال القرآن**. المجلد الثالث، ١١٩٥. وانظر: الشيخ محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**. المجلد السابع، ٣٨٨٨.

هذه الكلمة السواء التي على كل منصف الالتزام بها دون ترهيب أو إزاحة!!؟؟ ثم إنّ العلمانية تكلمت فيما لا علم لها من الغيبيات وحاججت فيما ليس لها به علم، وهذا يناقض أدنى أساليب الحوار للوصول إلى الحق، حتى تمثّل هذا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج: ٨]. ويصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر: ٣٥] إذن فلا بدّ لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، لا بقلب يملؤه الظنون والشكوك.

٥- وفي سورة البقرة الآية ٧٥- ٧٦ يقول سبحانه: ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فالعلمانيون (التنويريون!!) أرادوا تفسير القرآن على هواهم فحرفوها بعد ما سمعوا تفسيره الراجح الجامع فيه كل آراء العلماء، وهم لا يتوانون عن الكلام في القرآن بحجة العلم به وهم ينكرون أحكامه وتشريعاته، باستبعاد كل ما هو ديني من جميع شؤون الحياة كالسياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها؛ فبذلك لا مطمع ولا رجاء في إيمان هؤلاء، فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر، فالمؤمن سمحٌ هيّنٌ ليّنٌ، مفتوحة منافذ قلبه وفكره لأضواء الإيمان، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء، وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى. هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله. تحرفه عن علم وإصرار. فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة، تتحرج من هذا التحريف والالتواء. فهل تحرجت العلمانية من مثل هذا التحريف وليّ المعاني لتوافق مرادها ؟![1].

٦ - وفي سورة يونس الآية ٧ يقول عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٧] فمعلومٌ أنّ العلمانيين

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، المجلد الأول، ٨٤.

أكثر الناس تمسكاً بالدنيا بل الدنيا همهم جميعاً، ولا يرجون من الدين ما يرجونه من الدنيا، وبالتالي لايرجون من الله ما يرجونه من متاع الدنيا، وهم بذلك لا يرجون لقاءه؛ لأنهم ببساطة لا خطط لديهم بالاعتراف بالآخرة لا فكراً ولا سلوكاً، ويعتبرون هذه المسألة غير قابلة للنقاش العام، فهم مطمئنون بما في أيديهم من متع الدنيا. وهم بذلك لا يرجون لقاء ربهم؛ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعدّ نفسه لهذا اللقاء؛ ليستقبل ثواب الله،لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله؛ فكيف يرجو لقاء الله؟! فهم لا يلتفتون من حولهم حول آيات الله الكونية والقرآنية، فهم لا يتوقعون لقاء الله؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أنْ تكون هناك آخرة، وأنّ الدنيا ليست النهاية، فهم لا يتدبرون النظام الكوني الموحي بأنّ لهذا الكون خالقاً مدبراً، لا يدركون أنّ الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام، يتم تحقيق القسط والعدل؛ ونتيجة هذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا، بما فيها من نقص وهبوط، ويرضونها ويستغرقون فيها[1].

المطلب الثاني: التوصيف النبوي لمفهوم العلمانية وآثاره

كما وصف القرآن الكريم مفهوم العلمانية الذي هو مفهوم قديم في إزاحة كل ما هو ديني وإنْ لم يستخدم الدال (العلمانية)، فكذا قامت السنة النبوية بالتوصيف لكل قولٍ وعملٍ سُمّيَ أخيراً بـ(العلمانية) ومنها:

١ - عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «إنّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» رواه البخاري[2].

فأكثر من ينتسب إلى العلمانية لا يدرك خطورة أن يدّعي العلمانية وهو لم يتبين عن مفهوم هذا المصطلح، فإدراك حقيقة أنّ على الدين الانكفاء والانحسار في جانب من

---

(١) المصدر نفسه. المجلد الثالث. ١٧٦٧. وكذلك: الشيخ محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**. المجلد التاسع. ٥٧٤٩.

(٢) سبق تخريجه في ١٤٧.

جوانب الحياة، هذا كلام في حصر إرادة الله سبحانه الخالق الإله المعبود، وهذا يستحيل عقلاً بعد أن يكون مستحيلاً شرعاً؛ لأن الإرادة الصغيرة الضعيفة لا تستطيع أن تتحكم في الإرادة الكبيرة القوية، هذا إذا كان العلماني يعتقد بوجود الله تعالى سبحانه الإله الذي يمتلك تلك الإرادة الكبيرة والقوية بحيث يخلق هذه السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ويكمل خلق الإنسان في أحسن تقويم!!

٢ - وعن أبي هريرة أيضاً أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيقلْ خيراً أو لِيصمتْ» متفقٌ عليه[١]. فهل القول بالعلمانية خير، الخير المقصود بموازين القرآن الكريم والسنة الشريفة، أي بموازين الإسلام. فالكلمة التي تؤمن بالله ورسله وباليوم الآخر، ولا تعارض أسباب الإيمان ولا تناقضه، وبما أنّ العلمانية لا اعتبار لديها للمسائل الغيبية، فإنها تناقض أهم ثوابت الإسلام والإيمان حين تلغي الروح وتتبنى المادية وتجعل من الأخلاق (الإسلامية بخاصة) مسألة نسبية.

٣ - وعنه أيضاً أنّ الرسول (ﷺ) قال: «الكلمة الطيبة صدقة» رواه البخاري[٢]. فالتخصيص بصفة (الطيبة) هو إحالة إلى الآية التي تمثلنا بها في الصفحات السابقة من سورة إبراهيم في الآية ٢٤-٢٧ عند قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إذن فلا خير في العلمانية وهي تحارب الدين، فهي إذن ليست طيبة، نعم قد تكون طيبة لأهلها - فيما يرونه من واقعهم - الذين أنشأوها وتواضعوا على وضع مفهومها والاصطلاح على دالها، لاعتباراتهم الاجتماعية والسياسية والفكرية والظروف والملابسات التي أحاطتهم آنذاك. لكنها ليست طيبة بموازين بيئتنا وثقافتنا الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذا على الانسانية جمعاء وشواهد السياسة ودهاليزها خير دليل.

---

(١) سبق تخريجه في ١٤٩.

(٢) سبق تخريجه في ١٥٠.

٤ - الطريقة العملية التي تعامل معها الرسول (ﷺ) مع المصطلحات غير الإسلامية وطرح بديلها الإسلامي جاءت طريقته على أتمّ وجهٍ معرفيّ في نطاق منهجيّ متين، فهو يسأل عن معنى ومفهوم مصطلحٍ ما ليسترجع معهم المفاهيم السائدة ثم يقابلها بالمفاهيم الجديدة التي فرضها الوحي على المجتمع الإسلامي، فهذه المقابلة بحدِّ ذاتها مفاصلة بين ما هو إسلامي وغير إسلامي وهكذا يجب أن يكون التعامل مع مصطلح العلمانية، فيجب أن نسأل عنها وعن مبرراتها وأهدافها وسماتها، وبالتالي يتم توصيفه حسب قاموسنا الإسلامي لنتعرف عليه بموازين الإسلام.